ايقاظ القصيدة بسرد فني

المعلقات الشعرية السبع بريشة "مهند الناصري"

إسطنبول - شاكر السامر

كان الأدب وما زال وخصوصاً الشعر منه من أهم المحفزات الإبداعية للفنون التشكيلية ولا سيما القصائد التي حملت طابعاً قصصياً ووجدانياً استقطبت الأجيال المتعاقبة لما تحمله من رؤى جمالية وخيال خصب ك" المعلقات " مثلاً وهيَ كما درسنا مِنْ أشهَرِ ما كتَب العربُ شعراً في الجاهلية وسميت مُعَلَّقَات لأنها مثلُ العقود النفيسة تَعْلَقُ بأذهان سامعيها ، ويقال أن هذه القصائد كانت تكتب بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة قبل مجيء الاسلام وتعدّ هذه القصائدُ أروعَ ما قيل في الشِّعْرِ العربيِّ الْقَدِيمِ وأنفسَه ، لِذلك إهتَمَّ الناس قديماً بها ودَوّنوها وكتبوا شُروحًا لها، وهي عادةً ما تبدأُ بذِكْرِ الْأَطلَالِ وتذْكرُ ديارَ ومنازل الحبيبة ، وصراع أبطالها بأسلوب في غاية الروعة النسيجية لأحداثها بلغة جزلة في جمال المعاني والوصف والدلالة ، ولسنا هنا بصدد ذكر أسماء شعرائها ومطالعها ونصوصها المتنية لأنها معروفة بين الطلبة والدارسين والباحثين ، بل ما يهمنا هو أنها أصبحت خصوصا في منتصف القرن الماضي مثار اهتمام الفنانين التشكيلين .

ومن أهم الذين كرّسوا جل أهتمامهم لهذا النمط من الأعمال الفنية التي تستوحي من الشعر نصاً بصرياً هو الفنان العراقي المرحوم"جواد سليم" الذي كان يستلهم من بعض الأبيات الشعرية ثيمة فنية لبعض أعماله تعزيزاً لرؤيته وخياله الفني . وجاء بعده الفنان التشكيلي " ضياء العزاوي " كما في رسومه المكرسة لملحمة "كلكامش" ورسوم لنصوص شعرية للحلاج وتبعها برسوم مكرسة للحب مستلهماً فيها قصائد الشاعر اليمني وضاح المتوفى عام ١٨٠ م ..وليس مغامرة من اصداره لمجموعة مستقلة ضمن تقنيات جديدة بعنوان " المعلقات السبع ".. بل هو إنجاز فني مثار تقدير وإعتزاز كبيرين من لدن أغلب المهتمين بالفن التشكيلي .

وفي هذا الإطار برع مجدداً الفنان العراقي المبدع " مهند الناصري" وهو غني عن التعريف فهو خريج أكاديمية الفنون الجميلة - بغداد عام ٢٠٠٠ م ونهل من خبرات خاله الفنان المعروف (رافع الناصري) الكثيرا من معارفه في فن الكرافيك وتأثر به، ففي تسعينات القرن الماضي عمل مهند محترف الفنان الناصري في بغداد بعد فترة من توقفه وهجرة الفنان الراحل رافع الناصري الى عمان واستقراره فيها .. ، فقام بطبع مجموعة كبيرة من أعمال الفنانين العراقيين ومنهم / اسماعيل الترك وشداد عبد القادر ومحمد مهر الدين وكريم سعدون ونزار الهنداوي وأمين عباس ، ولحد الآن ..يستمر الفنان في طباعة مجاميع مختارة من اعمال الفنانين في محترفه الخاص في دبي. والناصري وهو يختط لنفسه نمطاً جديداً في التقنية والتخطيط والإستلهام حاول بجهد متميز أن يستلهم المعلقات الشعرية في لوحاته الفنية مستخدما "التكثيف".. في بناء مفردات اللوحة ودلالاتهامن خلال الاستلالات المختارة من النصوص الشعرية للمعلقات والتي يستطيع من خلالها ان يعطي صورة بانورامية للاحداث التي تعج بها هذه النصوص، فقد مزج في لوحته الصورة كرسم مع جزء من متن المعلقة أرتآهُ حسب تأثيرها الوجداني في نفسه وأعتبره ذا أهمية بارزة لدلالته الرمزية أو الإيحائية وكمحور لتكوين اللوحة الفنية المعبرة عن ثيمة حكاية المعلقة المختارة .

\* أما من ناحية توالي الأحداث الثيمية الحكائية شعراً لمضامين المعلقات عموماً فقد ارتأى الناصري إخترال الحكاية الشعرية الى عدد محدود من ثيماتها ورموزها والسبب واضح جداً وهو الحجم الكبير والهائل لأحداث المعلقة بحيث تجعل من أي فنان غير قادر على تجسيد تلك الحكاية - المعلقة بتكوين رسمي وتخطيطي كامل بكل ما تحمله من ثيمات وعناصر ودلالات للحدث الشعري بنصوص بصرية مدهشة ومحفزة لعين المتلقي والمتمعن وتحفيز الخيال لإستذكار ما تم قراءته من نصوص شعرية مفعمة بكل جماليات الأدب ..

وهنا تنداح أسئلة أظنها مهمة و لا بد ان نقترحها ونحن نشاهد أعمال الفنان "مهند الناصري" بعد مشاركته في مهرجان أيام قرطاج للفن المعاصر ٢٠١٩ وهو يعرض ثلاث لوحات من شعر المعلقات بقياس ١٢٠ - ٢٦٠ سم . ثم أنها عرضت أيضا في جناح دار كاليري كلمات اسطنبول بدءاً في اليوم الأخير من مهرجان أيام قرطاج في تشرين الثاني ٢٠١٩ ..ثم قام بتكملة هذا المشروع بما تبقى من المعلقات السبع حيث تم انجازها ما بعد ذلك وسيتم عرضها كاملة ( سبع لوحات للمعلقات ) بعد أختيار الكاليري المناسب لها في النصف الأول من هذا العام ٢٠٢٢ بإذنه تعالى ..ومن هذه الأسئلة مثلاً هو هل أن مشروع الناصري تجربة فنية جديدة أم مغامرة خطرة ربما تكرّس تجربة سابقة لفنان آخر سبقه، أم تضيف لها نمطاً مغايراً وتتميز عنها ببعض المفردات التكوينية للرسوم التي وضعها ، رؤيةً وتخطيطاً ؟ ؛ وهل من الضرورات الفنية المعاصرة أن نفهم الأدب من خلال الفن التشكيلي ورسوماته ، وهل يحتاج الفن الى محرك ومحفز لتجديده من خلال الثيمة الأدبية والشعرية ..؟ ؛ أم أن العلاقة بين الأدب والفن هي علاقة أوراق الورد بميسمه ؟.. أعتقد أن كل هذا وارد ولكن بنسب متفاوتة بين هذا وذاك ، ولكن أيضاً الأمر يتعدى ذلك الى تأكيد أن ذاكرة الأدب والفن هما تتوازنان عفوياً وبديهياً في محيط العقل البشري وذاكرته الجمعية .، وحين يترجم الفنان بصوره البصرية العمل الشعري الكتابي الى لوحات تأخذ منه وتعطي في آن واحد حتى يصبح ذلك التوازن مُختلاً في محصلة الرؤى الفنية بصرياً أي بمعنى التجديد الحكائي للنص الشعري بأسلوب معاصر يتماهى أفقياً وعمودياً في مخيلة الفنان ويتجاوز ماضي الحكاية - القصيدة لتجعلها متحركة بأسلوب فني في عين وخيال المتلقي المعاصر .. وقد يسأل ناظر الى أهمية اللون الأبيض أو الأسود في عمل الفنان الناصري ولماذا إعتمدا عليهما في هذه الأعمال "المعلقاتية" ؟؛ وهل للبعد الزماني بين المعلقة شعراً وبين المعلقة رسماً قد جعلا من هذين اللونين"الأسود والأبيض" قرينين طاغيين للدلالة الزمنية فلسفياً ، أم أن إستخدام اللونين هو للتعبير عن التضاد الزماني والمكاني بين التكوين الشعري الماضي وبين التكوين الرسمي المعاصر ؟ . يبقى الباب مفتوحاً للتحاور بين النقاد والفنانين والمهتمين بالجمال الفني حول النقاش والإجابة على هذه الإستفهامات والمداخلات سجالاً قائماً يبشر بإنتشار الذائقة الفنية على نطاق واسع في رؤى وتأملات المتلقين عموماً ..

إن إستخدام الفنان للنمط القديم في المخطوطات العربية والإسلامية ولو بشكل نسبي وعَرضي قد نبهنا أنه قد آثر سحبنا الى أجواء ماضوية أصيلة فلكلورية أو تراثية بإنحيازات عبقت بالتعانق الروحي بين الخط والرسم التصويري بدلالته الرمزية ورموزه حرفاً وشيئاً ( السيف ، الرمح ، اللباس التقليدي للفرسان وغيرها).

إن إستنساخ الشعر وإستلهامه بعمل فني يتيح لأي فنان ممارسة تمرينية لرؤيته الفنية لتخيّل ما هو ماضٍ الى ما هو حاضر في الحدث اليومي المعاصر كما كان يفعل الفنان البارع " جواد سليم " في النصف الأول من القرن الماضي حتى أصبحت هذه الممارسة لبعض الفنانين ومنهم مهند الناصري" تجربة فنية معاصرة .. ولابد أن نشير أن تجربة رسوم المعلقات عند "مهند الناصري" ليست الأولى في مسيرته الفنية فقد سبق أن عمل رسومات لقصائد الشاعر العراقي الراحل " عبد الرزاق عبد الواحد " ولذا نقول أن تمثل النصوص الشعرية بنصوص بصرية يعد تحولاً مهماً في العمل الفني لذات الفنان يعطينا إحساساً مرهفاً بعالم جذاب ساحر من الخيال في الشعر والعاطفة والحب والوجدانية العابقة بحرارة التجاذب الروحي بين الماضي والحاضر .. كما أن أصالة بعض النصوص الشعرية كالمعلقات مثلاً قد أعطى للتجربة الفنية الجديدة في هذا المجال ميزة جمالية في الإحساس بقيمة الوصف المتخيّل للفنان لمعاني النصوص الشعرية .. ولو إفترضنا أن الرسوم الآنفة الذكر قد خلت أو تجردت من الكتابة الشعرية لأبياتها ، وإكتفت برسوم ثيمة القصيدة فقط ، فهل يحس المتلقي أو المشاهد لذلك العمل الفني بها كقصيدة معينة قد قرأها سابقاً في الآثار الشعرية .. أم أن نبض إحساسه سيتأخر في معرفتها كنص شعري من خلال رؤيته لللوحة الفنية ..؟ أعتقد جازماً أن ذلك يتوقّف على درجة ونسبة مستوى الفهم المعرفي والثقافي للمشاهِد أيّاً كان . وهل من واجب الفنان التشكيلي أن يعطي للمشاهد نصاً شعرياً مقروناً مع عمله الفني ..؟ أرى أن الجواب على هذا التساؤل ينبغي بحثه بحوار معمق بين النقاد المختصين وبين الرسامين الذين جعلوا من تلك الأعمال جزءاً من تجاربهم الفنية ومنجزاتهم الإبداعية خصوصاً اذا ما إفترضنا أيضاً ان المزاوجة بين النص الشعري مكتوباً مع رسم ثيماتها ورموزها تمنحنا لوناً جمالياً بأصالة أكثر عمقاً وإحساساً بالماضي .

وأخيراً ان النتاج الفني للفنان مهند الناصري يمتاز بالتجدد والحداثة ليس بنمط مألوف ومستهلك من حيث التقنية والطراز المختلف لأنه ولأول مرة خرج عن المألوف الفني فأخذ ينحى بخط غير مستقيم فمزج ( بين الرسم ذي الصيغ المعروفة او المتداولة بأنامل الفنانين كافة بأشكالها ومدارسها ونوعياتها وبين التخطيط المعماري المستند على الالكترونيات التخطيطية واللونية ).. وتعد اللوحة التي ينتجها الفنان ( مهند الناصري ) مزجاً نادرا في تكنيك اللوحة الفنية عراقيا وعربيا و عالمياً .. ويمكن ان نقول بكل ثقة وتأكيد أن لوحة مهند الناصري ( ابتكار فني جديد ) يرقى الى مستوى مدرسة خاصة جديدة وحديثة معاً ... وقد واضب عليها الفنان مهند بشكل نادر وفريد ولابد ان نؤكد ان الفرادة التي اشير اليها تكمن في نوع وأسلوب نتاجه ، حيث نهل من معرفته المعمارية وانتج لنا لوحة برؤيه ثاقبة ذات نكهة عراقية خالصة موضوعا وانطباعا وتقنية ..ولذا أُعتبر الفنان ( مهند الناصري ) بلجوئه الى استخدام الطباعة الليثوغرافية الحديثة قد انجز مشروعه الفني الذي يستحق ان يحتفي به النقاد الفنيّون نوعا فنيا معاصرا .

­